



الأقطاع والخصار البحري على أوروبا في منتصف العصور الوسطى

د. هاشم ناصر حسين الكعبي.

جامعة كربلا / كلية التربية للعلوم الإنسانية.

م. د. نعيم عبد جودة الشيباوي

جامعة كربلا / كلية التربية للعلوم الإنسانية.

Abstract

There are so many themes that shed lights over the subject of feudalism without giving accurate definition to most of its roots or partial details. Those widely known topics, indeed, treated the subject from one point of view, the agricultural transactions of the cultivated land disregarding other important points. Feudalism, actually, was invented during stern economic and financial crises to be a remedy for the social, economic and monetary problems. This research article has been determined to express different analyses for this political, economic and social term foxing on the main historical two reasons that forced both of the governments and peoples to resort to this sort of deal, the Germanic invasion and the block out of the Mediterranean. This sea or what so called in the classic ages, the Roman lake, was the key maritime path for the African gold which was used in minting coins. Thus, the devaluation or the collapse of the Roman currency from the mid of the Fifteenth Century onwards, for the first time, and of the Carolingian currency in later part of the Eighteenth Century, for the second time, led to innovate fresh operations to run the daily activities of life.



أولاً:- البدايات المبكرة للإقطاع.

طالما ارتبط ظهور الإقطاع في القارة الأوروبية بانغلاق البحر المتوسط عليها. فقد كان ذلك البحر يشكل ارتباطاً لها بالقاراء الأفريقية الغنية بالذهب والفضة التي طالما زودت الإمبراطوريات أو الدول بتلك المعادن الشمينة لسكن مختلف العملات النقدية!

ومن النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي كان الرومان أول من لجأ إلى تأسيس تلك التنظيمات الاقتصادية التي يمكن أن توصف بأنها نوع من إجراءات الاقتصاد العيني. إن اللجوء المبكر للإمبراطورية الرومانية الكلاسيكية في أواخر حياتها في القارة الأوروبية إلى تلك الإجراءات التي وصفت بأنها اقتصاعية كانت مرتبطة بحلقة من الظروف الاقتصادية والاجتماعية التاريخية لا يمكن فصل بعضها عن البعض الآخر. فكان أول تلك الخطوات تعزى إلى انهيار العملة النقدية الرومانية الذي كان يعزى إلى انغلاق البحر المتوسط بوجه تلك الإمبراطورية ما أدى إلى انقطاع مصادر الذهب والفضة التي كانت تتوارد على القارة الأوروبية من أعماق القارة الأفريقية.

الحق أن ذلك الانغلاق البحري بوجه الإمبراطورية الرومانية كان يعزى إلى عاملين تأريخيين أولهما ظهور أحدى المالكين герمانية في شمال أفريقيا وهي مملكة الوندال التي تمكنت من بسط سيطرتها على الشواطئ الأفريقية للبحر المتوسط ما أدى إلى انكماس التجارة البحري هناك، وثانيهما هو ظهور قوة قبليّة بدائية هائلة لم يكن يُحسب لها حساب هم قبائل الهنون المغولية الذين قدموا إلى القارة الأوروبية منذ النصف الأول من القرن الرابع الميلادي من أوسط آسيا مروراً بالمر الكائن بين جبال الأورال وبحر الخزر. وقد أخذ هؤلاء الغزاة الجدد يزاوج القبائل герمانية المتحالفه مع الإمبراطورية الرومانية المقيمة في شرق أوروبا نحو وسط أوروبا، فحصل ما يمكن أن يُطلق عليه عملية انتقال وهجرة جماعية سكانية نحو الغرب. فعلى الرغم من أن قبائل герمان الغوط الغربيين تمكنا من أن يقفوا بوجه ذلك التقدم الهنوني المريع إلا أنهم اضطروا إلى النزوح غرباً حتى وصلوا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية حيث كان يقيم الوندال هناك.^١

وعلى أية حال، فعلى الرغم من قوة وشकيمة الوندال إلا أن القسم الكبير منهم تمكّن من عبور البحر المتوسط نحو شمال أفريقيا سنة ٤١٨ م. حيث أقاموا مملكة لهم هناك ظلت قائمة طيلة المدة ٤٢٩-٥٣٣ م.^٢ عندما انهى وجودها الإمبراطور البيزنطي الشرقي جستينيان على قادته البارز بيليساريوس. وقد مارست تلك المملكة نفوذاً بحرياً على البحر المتوسط أضر على الاقتصاد الروماني.^٣ ومع كل ما من ذكره،

١. ادوارد بروي، تفوق الحضارة الشرقية في:- موريس كروزويه، تاريخ الحضارات العام، بيروت، ٢٠٠٦، ص ص ١٥-١٦.

٢. المصدر نفسه، ص ص ١٤-١٦.

(3) James Harvey Robinson and James Harvey Breasted, General History of Europe, London, 1926, P. 183.

٤. عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية ٤٧٦-٤٥٠، بيروت، ١٩٦٧، ص ٤٢.

٥. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول:- التاريخ السياسي، الطبعة التاسعة، مطبعة الانكلو- مصرية، ١٩٨٣، ص ٨٨.

(6) James Harvey Robinson and James Harvey Breasted, Op. Cit, P. 183.;

٦. سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ص ٨٨-٨٩.

(7) <https://ar.m.wikipedia.org/wiki>. Accessed in:- ٣١٨\ 202.



فإن أولئك الهنون هم الآخرون بسطوا همّتهم على المنافذ التجارية على شرق أوروبا بشكل لا يقل خطراً عن مملكة الوندال!

ومهما يكن من أمر لم يكن إمام الإمبراطورية الرومانية الكلاسيكية من حلول أممها للأزمة الاقتصادية المريرة التي آلمت بها من جراء ذلك الانغلاق البحري سوى اللجوء إلى استثمار الأرض. لقد كان إمام تلك الإمبراطورية إن تعيل الأعداد الهائلة من موظفيها ومن الأسرى والعيّد الذين كانوا يمارسون واجباتهم التي اعتادوا عليها مقابل أجور نقدية^١. وبعد أن أصبحت الدولة غير قادرة على تلك الأجر بسبب انهيار العملة الرسمية رفعت مستوى أولئك العبيد إلى معمرin **Coloni** ومنحهم مساحات من الأرض يقتاتون عليها عرفت الواحدة من تلك الوحدات من الأرض بالفيلا **Villa** التي كانت مساحتها تقدر ١٥٠٠ أيكر. ومع مرور الزمن أصبح أطلق على ذلك المعمر **Colonus** كلمة لاتينية أخرى مشتقة من الفيلا **Villein** تُعرف بقِن الأرض.

بعد زوال خطر الوندال عن الملاحة التجارية في البحر الأبيض المتوسط لم تعد قارة أوروبا أو بالأحرى الجزء الغربي من القارة الأوروبية مثلاً ما هي عليه فيما مضى، إذ خَلَفَ سقوط العاصمة روما على يد القائد الجermanي أدواكير زوال وجود أي شيء يذكر من مؤسسات الدولة القادر على انشاش الاقتصاد وتوحيد كلمة الرعية في ظل كيان سياسي واحد ولم تكن هناك سوى وجود ممالك جermanية متباشرة متصارعة لأسباب قبليّة أو مذهبية مسيحية وغالباً ما كانت كنيسة روما الكاثوليكية هي الطرف الوحيد الذي يلجأ إليه المتنازعون لفض النزاعات لما تتمتع به من مكانة روحية عالية بين أوساط المسيحيين الجermanان^٢.

ثانياً:- الأقطاع الجermanي.

كانت مملكة الفرنجة الميروفنجية هي الدولة الأوسع والأقوى من بين جميع الممالك الجermanية التي ورثت روما في الغرب الأوروبي وصادف ظهورها للحياة وجود طرق بحرية وبرية آمنة لممارسة التجارة الدولية وقد حققت نجاحاً تجاريًّا هائلاً عبر عاصمتها الاقتصادية مرسيليا التي هيمنت على التجارة مع الشرق ومع إفريقيا كذلك^٣. وعلى الرغم من ذلك الانتعاش التجاري إلا أنها لم تدخل عن طبيعة التنظيمات الزراعية التي سبق أن لجأت لها روما سلفاً ولكن بسميات جديدة هي الدومين التي تتكون من مساحة تتراوح بين ١٢٠٠ إلى ١٣٠٠ هكتار، وكانت تنقسم إلى قسمين الأول يعود للأمير والثاني يعود للفلاح أو قن الأرض اسمه المانس الذي يكون معفى من أي شكل من الشكال الضريبية العينية أو النقدية^٤.

(1) R. H. C. Davis, A History of Medieval Europe, Longman, London, 1970, P. 22.

(2) J. Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, Vol: I, Boston, 1946, P. 23.

٣. عبد القادر أحمد يوسف، المصدر السابق، ص.

٤. أدوارد بروي، المصدر السابق، ص ٢٤-٢٥.

٥. نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٧، ص ص ١٠٣-١٠٤.

٦. جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصر الوسيط الأوروبي وحضارتها، الطبعة الأولى، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٧، ص ص ١٠١-١٠٠؛ نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص ص ١٠٢-١٠٠.



وعلى اية حال، عندما آلت مقاليد السلطة الملكية عام ٧٥١ م. لشعب الفرنجة الى الملوك الجدد الكارولنجيين الذين أعلنا توجهاتهم العقائدية المبكرة في كونهم حماة العقيدة المسيحية الكاثوليكية ودخولهم في علاقات صداقة مع الدولة الإسلامية الجديدة التي تزعمها العباسيون في بغداد الذين ما بثوا أن ساعدوا على تأسيس دولة الأغالبة على الساحل الشمالي لأفريقيا حيث هيمتنا على طرق التجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط من جهة، وتنازعهم مع الإمبراطورية البيزنطية في أمور سياسية ودينية من جهة أخرى جعل التجارة الدولية البحرية في البحر المتوسط تصاب بحالة من الشلل التام الأمر مدة ثلاثة قرون بدأها عام الانقلاب الكارولنجي سنة ٧٥١م.

ان ذلك الحصار البحري الشديد قد أدى بظلاله على الواقع الاقتصادي لوسط وغرب أوروبا الذي كان يقع تحت هيمنة الكارولنجيين. وكان انقطاع المعادن الثمينة عن القارة الأوروبية جعلها تعيد النظر في اجراءاتها الإدارية والاقتصادية بشكل أوسع بكثير مما عمله الرومان والميروفنجيين من قبل.

اعتماد شعب الفرنجة على سك وتداول عملة الصلد **Solidus** الفرنجي المصنوع من الذهب الحالص الذي كان له ابلغ الاثر تسديدهم الاقتصاد العالمي آنذاك. فقد قدر المؤرخ البلجيكي هنري بيرين في عشينيات القرن العشرين قيمة الصلد الفرنجي فتوصل الى انها تساوى اكثر من ثلاثة دولارات وفق قيمتها الشرائية في ذلك العقد الذي اجرى فيه الدراسة، ولكن الملوك الكارولنجيين الجدد والمعادلة الدولية المقدمة التي اضحت عليها عالم العصور الوسطى منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر في الانغلاق البحري على اوروبا وانقطاع المعادن الثمينة عنها اجبرتهم في اول الأمر على القيام بمحاولات سك عملة تقدية جديدة مصنوعة من الفضة هي الدينار الفرنجي الا انها لم يكن لها اثراً يذكر في تحقيق اية نجاح اقتصادي او مالي فضلاً عن انقطاع الفضة نفسها عن دولتهم.^٣

اجبرت هذه التطورات المستجدة الملوك الكارولنجيين على ابتكار وحدات جديدة من الأرض ومنحها بشكل هرمي للأمراء والبلاء الذين يؤجروها هم الآخرين الى فئة الفرسان الذين يشرفون على تشغيلها بواسطة أقنان الأرض الذين اضحوا يسمون **Serfs**.

ان هذا النوع من الاراضي كان يسمى بالمائة **Hundred** التي تتكون من ما يقرب خمسة أميال جermanية وكانت تسمى بالأراضي المكشوفة التي يعمل بها الفن اربعه ايام في الاسبوع. وبجانب المائة من الأقنان كذلك وحدات من الأرض خاصة بهم للإعالة عوائلهم كانت تسمى بالأراضي المبعثرة وكان العمل بها ثلاثة ايام في الاسبوع.^٤

(1) James Westfall Tompson, Economic and Social History of the Middle Ages, Vol:- I, New York , 1966, P. 282.

(2) Henri Pirenne, Medieval Cities their origins and the Revival of trade , Princeton, New Jersey , 1944, , p.36 , p.42 , R.H C. Davis , Op. Cit. p.181.; H.G.Koenigsberger, Medieval Europe 400-1500, Longman,1989, p.79.

(3) Henri pirenne , Op.Cit , pp. 36- 34.

(4) James Westfall Thomson, Op. Cit, PP. 282- 283.

(5)James Westfall Thomson, Op. Cit, PP.28; ١٠٠ جوزيف نسيم يوسف, المصدر السابق, ص



أما إشراف الفرسان على ذلك العمل في تلك الوحدات الزراعية فكان مقابل ضرائب متفق عليها فضلاً عن إدائهم الخدمة العسكرية مدة لا تتعدي أربعين يوماً من كل سنة في ثغور المملكة المترامية الأطراف!^١

الحق، إن تلك التنظيمات مع بذائتها وبساطتها وسياحة التعامل الكبى والعني في إدارتها إلا أنها اثبتت تجاحها في إنقاذ وسط وغرب أوروبا من اعتى واقور حصار عرفة البشرية في العصور الوسطى الأوروبية. فلولاها ما كان يُقدر للشعوب القاطنة في وسط وغرب القارة الأوروبية النجاحبقاء والاستمرار في تلك الظروف العصبية. بل إن نهاية ذلك الحصار البحري كشف عن تزايد هائل في سكان تلك الاقاليم.^٢

ولم يقتصر الأمر على الشأن الاقتصادي فحسب، بل ان انغلاق أوروبا طيلة ما يقرب الأربعة قرون من الزمن جعل الشعوب الساكنة هناك تحافظ على هويتها الثقافية المتمثلة بالديانة المسيحية حسراً. وبعد انتهاء الحصار البحري وانفتاح أوروبا على العالم من جديد امسي المواطن الأوروبي ينظر إلى الدين كونه قضية ثانوية. ناهيك عن ان تلك الغزالة وفرت لها بيئة صحيةً فما ان انتعشت الطرق التجارية حتى اصاب القارة الأوروبية بأكملها الطاعون الأسود الذي يُذكر انه اهلك اكثراً من ثلث السكان.

ثالثاً: إنحسار الحصار البحري والأقطاع.

ارتبط انحسار الأقطاع وافتتاح البحر المتوسط أمام التجارة الدولية إلى حدٍ كبير بمساعي البابوية الكاثوليكية في التبشير في المعتقد المسيحي منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى في اوساط فئة من الأقوام الجرمانية التي كانت تقطن في شبه الجزيرة الأسكندنافية الذين عُرّفوا بالشماليين او بالتورماند **Normans** وعند ذلك لم تكن الاوضاع العامة في ساحل شمال افريقيا على ما يرام لظهور قوة الفاطميين وخلافاتهم مع الدولة العباسية الامر الذي ادى إلى ضعف هيمنة المسلمين البحري في مياه البحر المتوسط.^٣

وعلى ايّ حال، فكانت الجهود التبشيرية المسيحية وتدنى القوى الاسلامية البحري قد ادت إلى تشجع التورمان إلى مهاجمة جزيرة مالطا والاستيلاء عليها سنة ١٠٦٠ م. وكذلك الاستيلاء على جزيرة كورسيكا سنة ١٠٦٢ م. وقد هاجم كذلك الإيطاليون العاصمة التونسية المهدية عام ١٠٨٧ م وأضطر حاكمها إلى توقيع إتفاقية معهم تضمنت دفع السلطات التونسية غرامة حربية وأطلاق سراح الأسرى المسيحيين والأمتناع عن القرصنة وأعفاء السفن البيزنطية بصورة خاصة من الضرائب. واستطاع كذلك التورماند الاستيلاء على جزيرة كورسيكا عام ١٠٩١ م وأنزعها من المسلمين وتم لهم بذلك فتح مضيق مسينا^٤ والبحر المتوسط للملاحة الأوروبية، وعندما أستولى الصليبيون على سواحل بلاد الشام في أوائل القرن الثاني عشر الميلادى إنطلقت

١. عبد القادر احمد يوسف، المصدر السابق، ص ١٢٦.

٢. جوزيف نسيم يوسف، المصدر السابق، ص ١٠٣-١٠٢.

٣ (3) Henri pirenne , A history of Europe from the invasion to XVI Century, London,1936 , pp. 177- 178. ; عبد القادر احمد يوسف، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر صيداو بيروت، ١٩٦٩.

٤. عبد القادر احمد يوسف، علاقات بين الشرق والغرب، ص ص ١٥-١٤

Christopher Brooke, Europe in Central Middle Ages, 962- 1154 , London , 1966, p. 221.



التجارة الأوربية وتحررت من قيودها ونشأت شبكة من الطرق التجارية لم تقتصر نتيجتها على أتصال الأوروبيين بسواحل بلاد الشام فقط بل شهدت إتصالهم بال المسلمين تجاريًا في أفريقيا وآسيا ثم أمتد إلى أبعد من ذلك إلى الهند والشرق الأقصى^١.

وهكذا فقد كان لوقع إيطاليا بين الشرق والغرب الأثر الكبير في الاستفادة أكثر من غيرها بالأتجار مع بلاد الشام وسائر بلاد المسلمين في أفريقيا وبلاد الأندلس، فتاجرت البندقية مع مصر وبيزا مع تونس وكانت كثيرة من المدن الإيطالية تبيع الأسلحة لل المسلمين في خضم الحروب الصليبية ويدو أن الإيطاليين ليسوا كالكارولنجيين، إذ طالما رددوا تلك العبارة القائلة: "إنا أولًا تجار وثانياً مسيحيين^٢."

وهكذا فقد كانت عودة الاتعاش التجاري في البحر المتوسط وهيمنة القوى الأوربية عليه من جديد إيناناً بالأنحسار التدريجي للقطاع في مختلف ارجاء القارة الأوربية عند نهاية القرن الحادى عشر للميلاد.

الخاتمة.

يتضح مما مر بحثه انه على الرغم من ان اللجوء الى الاجراءات الاقطاعية يمثل عودة الى الوراء في تاريخ الحضارة البشرية، إلا انه يُعد بمثابة احدى الوسائل التي اخترعتها الحضارة الإنسانية عندما ت تعرض الى حالة من التهديد الاقتصادي الذي تفرضه الظروف العسكرية او السياسية او الجغرافية. وان تلك الاجراءات التي اتخذتها الامبراطورية الكارولنجية على الرغم بذاتها وواسطتها كشفت قوة استجابة الدولة للتحدي الذي فرضه عليها الواقع المر آنذاك. ومن غير المستبعد، في حال أعطينا وصفاً آخر لتلك الوسائل الاقطاعية في انها نوع من انواع الاقتصاد العيني او الضرائب العينية، ان تكون درساً لنا في الواقع الذي نعيشه اليوم في طبيعة الحروب الاقتصادية والمالية التي يشهدها العالم في يومنا هذا.

١. محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، ١٩٩٩، ص ١٦٦.
٢. المصدر نفسه، ص ١٦٩.



قائمة المصادر.

- جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الاورية وحضارتها، الطبعة الاولى، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٧.
- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، ١٩٩٩.
- موريس كروزية، تاريخ الحضارات العام، بيروت، ٢٠٠٦.
- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوربا، الجزء الاول، الطبعة الاولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٧.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، اوربا العصور الوسطى، الجزء الاول:- التاريخ السياسي، الطبعة التاسعة، مطبعة الانكلو- مصرية، ١٩٨٣.
- عبد القادر احمد يوسف، العصور الوسطى الاورية ٤٧٦- ١٥٠٠، بيروت، ١٩٦٧.
- عبد القادر احمد يوسف، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر و الخامس عشر صيدا، بيروت، ١٩٦٩.

— Christopher Brooke, Europe in the Central Middle Ages, 962- 1154 , London , 1966.

— H.G.Koenigsberger, Medieval Europe 400-1500, Longman,1989.

Henri pirenne , A history of Europe from the invasion to XVI Century, London,1936.

— Henri Pirenne, Medieval Cities their origins and the Revival of trade , Princeton, New Jersey , 1944.

— James Harvey Robinson and James Harvey Breasted, General History of Europe, London, 1926.

— J. Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, Vol:- I, Boston,1946.

— James Westfall Tompson, Economic and Social History of the Middle Ages, Vol:- I, New York , 1966.

— R. H. C. Davis, A History of Medieval Europe, Longman, London, 1970. <https://ar.m.wikipedia.org/wiki>. Accessed in:- 3\ 8\ 202.